روز . . . !

للكاتب القصصي الفرنسي جي دي موباسان

ترجمة الأستاذ أنور المعداوي

« إلى صديقي الأستاذ الكبير ا. باث

أنت تعلم موبسان بي الناس فقلت لعلي صادفا من بعد إلى لذة ، ونقلت البصر خائفاً من قلم إلى قلم ... فقدمته في قمة الثلاث : « ضوء القمر » و « الحلية » و « جولي رومان » ، فهل تأذن لي في أن أقدم إليك هذه القصة الرائعة ، نحية متواضعة ؟ »

الفتاتان تبدوان للعين غائصتين في فراش من الزهور ، وحيدتين في عربة فارهة قد اكتظت بطاقات الزهر ، فهي أشبه بسلة مفرطة في الضخامة ، وعلى المقعد الخلفي سفطان صغيران قد ملئا زهور البنفسج « النيسي » ، وفوق فراء الذئب الذي يغطي الركبتين أكداس من الورد وزهور الأقحوان والزنبق والعرنقال ، شد بعضها إلى بعض بأشرطة من الحرير يخيل إلى الظان أنها ستهصر الجسدين الناعمين ... ومن الفراش المطر في العربة الفسيحة لم يكن يظهر من كائنهما غير الكتفين والذراعين ، وجزء صغير من بطاقين يلتفان حول الخصر النحيل أحدهما أزرق اللون بينما الآخر في لون البنفسج !

وتنظر إلى سوط السائق فتراه وقد لف بقطاء من زهور الأقحوان ، بينما ازدانت رءوس الخيل بزهور الزينة واكتست المجلات بثوب من زهور الخزامى ... وفي مكان المصابيح طاقتان من الزهر مستديرتان كبيرتا الحجم ، أشبه بعينين نطلان من وجه هذا الحيوان الغريب المتدحرج على الأرض في هيكل من الزهور !

لون من ألوان الحقيقة فقد عرضت له في كلمتي الأولى ورفعت القناع عن كل ناحية من نواحيه ... وإذن فكل ما يمكن أن يقال قد قيل بالفعل ، ولو كتبت كلمتي الثانية لما هدفت إلا إلى تأكيد ما جاء بكلمتي الأولى على ضوء الدليل المادي الذي لا يدفع .

بقي أن أقول لك إنه ما دامت الحقائق قد ذكرت فلا بأس من الاستجابة لرغبات الساعين إلى الخير والداعين إلى الصفاء ... ترى أتنكر الصفاء في الأدب وهو الأمنية الكبرى لكل قارئ وكل أديب ؟ أم أنك أردت أن تثيرها زوبعة فكانت زوبعة في فنجان على حد تعبير الصحفيين ؟!

أنور المعداوي

حول تعقيب :

عقب الأستاذ محمد غنيم في العدد (٨٣٤) من الرسالة الغراء على قول الأستاذ أنور المعداوي (لم أكن أعرف — لم تكن تتح) — بأن جزم بأن هذين التعبيرين بمنا الخطأ وأوجب إلحاق لام الجحود ، ولكني لا أرى لجزم الأستاذ الناقد بالخطأ هنا محلا وما كان استعمال القرآن لهذا التعبير بلام الجحود في موضع ليأتي استعمال تعبير آخر يجري في مجراه بغير لام الجحود في موضع آخر ، ولو حصرنا كل الشواهد في هذا التعبير — من القرآن الكريم — لرأينا كيف يتخلى عنه الصواب في رأيه هذا وجزمه ... يقول الله تعالى في سورة هود (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)

ويقول في السورة نفسها (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) ويقول في سورة العنكبوت (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) ويقول في سورة الزمر (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ..

وإني أسوق هذه الشواهد وأجمعها إلى شاهده لنقول إن وجود لام الجحود يتوقف على وجود الكون المنفي ، ولكن وجود الكون المنفي لا يحتم وجود لام الجحود ، إلا ما رأته الأذن العربية وأوحى به الذوق العربي السليم . والسلام ...

عبد العظيم طه الجميلي

مجلس مديرية الغربية

يقبل المطلبات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم السبت ٣ (ثلاثة) سبتمبر ١٩٤٩ عن توريد الكراسات والأدوات الكتابية وأدوات الأشغال ويمكن الحصول على الشروط مقابل مبلغ مائتي مليم يضاف إليه مبلغ ٥٠ مليم أجرة البريد وتقدم المطلبات على ورقة دمغة من فئة ٣٠ مليم . ٢٤٤٦

وتندفع العربة إلى شارع « أنتيب » خفيفة الركض ، يحف بها من الأمام والخلف والجانبين جمع من العربات المكللة بالزهور تحمل نساء قد احتفين تحت لجة من بنفسج ... إنه عيد الزهور في « كان ».

وانتهى بهن الطاف إلى شارع « بوليفار » ، وعلى طول الطريق من الشارع الضخم كان هناك صف مزدوج من العربات المزركشة يروح ويجيء كخيط بلا نهاية ... ومن عربة إلى أخرى وهن ينثرن زهوراً تشق الفضاء كالكرات ، ثم ترتطم بالوجوه المشرقة ، ثم ترفرف في الهواء وتسقط على الأرض ، حيث يلتقطها جيش من الصبية الصغار . واصطف على الجانبين حشد كثيف من النظارة يثير الضجيج ولكن في شيء من النظام ، لقد بقي كل في مكانه بفضل الجنود وهم يسيرون الشارع على ظهور الخيل ، ويدفعون بأقدامهم أصحاب الفضول في عنف إلى الوراء ، حتى لا يختلط الأوشاب بأصحاب الثراء . ومن داخل العربات راح كل راكب يتطلع إلى صاحبه ، وينادي ويطلق عليه قذائف من الورد . وها هي ذي عربة قد غصت بالفتيات الأنيقات في ثيابهن الحمر كالشياطين تتعلق بها الأنظار ، وتنظر فترى أحد الفتيان في ثياب هنري الرابع يقذفهن في نشوة الشوق بطاقة ضخمة من الزهر في غلاف من « القطاط » ، يقذفهن مرة بعد مرة ، وكلما هم خفضت الفتيات رؤوسهن وأخفين عيونهن ، ولكن القذيفة الرشيقة تنطلق في الهواء ثم لا تلبث أن ترتد إلى صاحبها ليقذف بها ثانية إلى وجه جديد ! ... ويستمر الموكب في طوافه ساعة من الزمن يمتري الفتاتين بعدها شيء من الفتور ، فترغبان إلى السائق أن يلتمس طريقه إلى خليج « جوان » .

وغابت الشمس وراء « الإستريل » ، مخلفة ظلالها القاتمة فوق أرض من القطب ، على القطاع الجانبي من الجبل الممتد عبر الفضاء . وانبسط البحر الساكن أزرق صافياً على مدار الأفق البعيد ، هناك حيث يمتزج بالسماء ، وبتلك الجماعة التي ألفت مراسيها وسط الخليج كقطيع من الحيوانات الغريبة ، تلك التي تظل فوق سطح الماء جامدة بلا حراك ... حيوانات من عالم الغيب تغوست منها الظهور وتدثرت بدروع من الورد ، واتخذت غطاء الرأس من عوارض رقيقة كريش الطير ، ولها تلك العيون التي تقدح الشرر حين يهبط الظلام !

وانتثرت الفتيات تحت سماء أشبه برداء فراؤه السحب ، ورحن يتطلعن إليها في استرخاء ثم همست إحداهن قائلة :

— لله ما أرق هذه الأمسيات ! ... ألا ترين أن كل شيء يبدو جميلا يا مارجو ؟

— بلى ، كل شيء جميل ولكن ... ألا تشعرين أن هناك شيئاً ما ينقصنا دائماً ؟

— ما هو ؟ من جانبي ، إني لأحس السعادة كاملة فلا أرغب في شيء !

— نعم ؟ هكذا تظنين ، ربما ... ولكن مهما كانت السعادة التي تحيط بأجسادنا ، فإننا نرغب فيما هو أكثر ... في هذا الشيء الذي يسمد القلب ! وقالت الأخرى وهي تبتسم : قليل من من الحب ؟ فأجابت : نعم !

وساد بينهن الصمت ، ورحن يرسلن البصر مستقيا إلى الأمام ، وعندئذ هتفت إحداهن وتدعى مرجريت :

— الحياة ... إنها لا تبدو لعيني محتملة بغير حب . لكم أشتهي أن أحب ... ولو من كلب ! هكذا نحن جميعاً ، مهما خطر لك من فنون القول يا سيمون !

وصاحت سيمون قائلة:

— كلا كلا يا عزيزتي ، إني لأوثر ألا أحب على الإطلاق على أن أحب من شخص لا خطر له ! هل تظنين مثلا أنه قد يكون من اللائم لي أن أحب من ... من ...

وتطلعت سيمون إلى من تستطيع أن تظفر بحبه ، وألقت ببصرها إلى الفضاء المجاور ، وبعد جولة طوت بها كل جنبات الأفق ، هبطت عيناها على زوجين من العسكر يتألقان على ظهر السائق ، واستمرت في حديثها ضاحكة :

— من ... من سائق عربتي ؟!

وأجابت مرجريت وقد لاح على شفتيها ظل ابتسامة :

— أستطيع أن أؤكد لك أنه ما من شيء يبعث على التسلية مثل أن يقع خادم في حبك ... لقد جربت ذلك مئتي وثلاث !

ودرن بعيونهن شاخصات ، إلى تلك التي كادت تموت من الضحك ... واسترسلت مرجريت قائلة :

— من الطبيعي أن تلك التي تلقى المزيد من الحب ، تصبح

وهي أكثر النساء قسوة . وعلى النقيض تلك التي تزج بنفسها في طريق لا تجني منه غير السخرية ، لسبب تافه يستطيع أي إنسان أن يلحظه !

وأرهفت سيمون سمعها وأنت ببصرها إلى الأمام ثم قالت معقبة :

— كلا يا مرجريت ، إن قلبي خادعي لا ينقع لي غلة ما دام تحت قدمي ... ولكن هل خبرتني كيف أدركت أنهم قد وقعوا في حبك ؟

— لقد أدركت ذلك منهم كما أدركته من الآخرين ... ولما فهم يصبحون في نظري أغبياء !

— ولكن الآخرين لا يبدون لي أغبياء عند ما يقعون في الحب !

— بلهاء يا عزيزتي ، عاجزون عن الكلام ، عاجزون عن الجواب ، عاجزون عن فهم أي شيء !

— وأنت ؟ ما الذي أثر فيك حتى وقعت في حب خادم ؟ أكنت مسيرة بدافع الملق ؟

— مسيرة ؟ كلا ! ملق ؟ نعم أقليل من الملق ... إن كل فتاة ليسعدها الملق دائماً إذا ما أحبها رجل ، مهما كان هذا الرجل !

— أوه ... الآن جاء دورك يا مارجو !

— نعم يا عزيزتي ، انتظري ... سأقص عليك نبأ مغامرة فريدة وقعت لي ، وسترين كيف أن أشياء بالغة التفاهة تحتل مكانها من حياتنا في أحوال عماثلة ! ... كان ذلك في الخريف منذ أعوام أربعة ، عند ما ألفيت نفسي وحيدة بلا خادمة . لقد جربت من بين الخادمات عدداً يربى على الخمس ، جربتهن واحدة بعد أخرى ولكنهن كن جميعاً لا يصلحن لشيء . ولقد تملكني اليأس من أن أعثر على واحدة ، حتى وقعت في إعلانات إحدى الصحف على خبر فتاة صغيرة تبحث عن عمل ، فتاة تجيد الحياكة ، وتجيد التطريز ، وتجيد تصفيف الشعر ، وتستطيع أن تقدم خير الشهادات على ما تتمتع به من خبرة وكفاية ، وهي في الوقت نفسه تحسن التحدث بالإنجليزية .

وكتبت إلى الصحيفة على العنوان الذي قرأت ، وفي اليوم التالي حضرت الفتاة لتقدم نفسها إلي . كانت أقرب إلى الطول ، رقيقة البدن ، شاحبة اللون ، يم مظهرها عن خوف بالغ . لها عينان سوداوان جميلتان ؛ عينان تنعقان السحر ، حتى لقد راقت لي على الفور . وسألتها عما تحمل من شهادات فقدمت إلي واحدة مكتوبة بالإنجليزية ، لأنها جاءت — كما قالت لي — من بيت السيدة « رزويل » حيث طوت من عمرها عشرة أعوام ... كانت الشهادة تقرر أن الفتاة قد عادت إلى فرنسا بمحض رغبتها الشخصية ، وإذا كان هناك شيء تستحق عليه اللوم في خلال خدمتها الطويلة للسيدة « رزويل » ، فهو هذا الشيء اليسير من « الدلال » الفرنسي !

وابتسمت قليلا وأنا ألمح ما وراء العبارة الإنجليزية من تورية مهذبة ، ولكني تعاقدت مع الفتاة على الفور ، وحضرت إلى بيتي في نفس اليوم ، وكانت تسمى نفسها « روز » .

وجاء علي يوم أحببتها فيه إلى الحد الذي ينقلب معه الحب إلى عبادة — لقد كانت كنزاً من الكنوز ، لقد كانت درة من الدرر ، لقد كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة . كانت في تصفيف الشعر صاحبة ذوق شائق ، وفي تثنية شريط « الدنتلا » على غطاء الرأس أكثر دراية من خير المهنيات ، وكانت تجيد حياكة « الفساتين » ... أبداً لم أر لها مثيلا في خدمتها لي !

كانت تساعدني على ارتداء ملابسي في سرعة فائقة ، وخفة يد تثير العجب ، ما شعرت أبداً بمر أناملها على بشرتي الرقيقة ، ولا شيء يبدو لي خالياً من اللياقة مثل أن تلمسني يد خادمة ! — وانقضت على الفور في عادات تتميز بالإفراط في البطالة ، فلكم كنت أشعر بالسرور حين أدعها تدثرني من الرأس إلى القدم ، من القميص إلى القفاز ، هذه الفتاة الطويلة ، الخائفة ، التي تخجل قليلا ولا تتكلم أبداً ! وبعد الاستحمام قد تجففني ، وتدلكني بينما أكون على أهبة النوم أو مضطجعة على الأريكة ... وعلى مر الأيام بدأت أنظر إليها كصديقة بائسة أكثر مما أنظر إليها كخادمة !

وذات صباح أقبل البواب في مظهر يثير الظنون ، معلناً عن رغبته في التحدث إلي ، واستولت على الدهشة ولكني أذنت له في الدخول .

كان جندياً كهلا يبدو عليه التردد في الإفصاح عما يريد أن يقول ... وأخيراً همس في صوت متلعثم :

— سيدتي ، إن ضابط بوليس المنطقة موجود في الطابق الأسفل

وقلت متسائلة : ماذا يريد ؟

— إنه يريد أن يفتش البيت !

حقاً إن رجال البوليس ضرورة لازمة ولكنني أمقتهم — ولا أستطيع أبداً أن أعترف بأنهم يزاولون مهنة شريفة ! وأجبت في صوت ألهبته الكرامة الجريحة :

— لماذا يفتش هنا ؟ لأي غرض ؟ إننا لا نعرف السطو !

ورد الحارس قائلا :

— إنه يعتقد أن أحد المجرمين يختفي هنا في مكان ما .

وبدأت أشعر بشيء من الرهبة ، وأمرت بأن يصعد إليّ ضابط البوليس عسى أن أظفر منه بشيء من الإيضاح — كان رجلا جم الأدب يزدان صدره بوسام « اللجيون دونير » . وبدأ حديثه معرباً عن أسفه ، مقدماً اعتذاره ، مؤكداً أن هناك مجرماً بين ما لدي من خدم —

وكنت أصدق ، وأجبت بأني أستطيع أن أشهد لكل واحد منهم ، بل وينبغي أن أقدمهم إليه مستعرضة ليقتنع .

هناك « بيير كورتان » ، جندي كهل — ليس هو .

سائق العربة « فرانسيس بنجو » ، مزارع ، ابن المشرف على مزارع أبي — إنه ليس هو .

صبي يعمل في الحظيرة ، من ثمياني ، من أبناء مزارعين . أعرفهم — ليس هو .

ولا أحد بعد ذلك غير هذا الخادم الذي تراه — إنه ليس واحداً من كل من ذكرت . وإذن فأنت ترى أنك قد خُدعت يا سيدي !

— معذرة يا سيدتي ، ولكنني واثق من أنني لم أخدع — هل تسمحين بأن يكون استعراضك لخدمك عن طريق إحضارهم هنا ليظهروا أمامي وأمامك ؟ كل خدمك بلا استثناء ؟

وترددت بادىء الأمر ، وأخيراً أذعنت ، ولم أر بداً من استدعاء كل الخدم رجالا ونساء .

وتفحصهم جميعاً في لحظة ثم أوضح : إنهم ليسوا كل الخدم

وأجبت قائلة : معذرة يا سيدي ، ليس هناك غير خادمتي الخاصة ، تلك التي لا يمكن بحال أن تختلط بينها وبين أحد المجرمين !

— هل أستطيع أن أراها أيضاً ؟ — من غير شك !

وغمزت الجرس فظهرت « روز » على الفور .. وفي اللحظة التي دخلت فيها الفتاة أرسل الضابط إشارة إلى رجلين قد كنا وراء الباب فلم تقع عليهما عيناي ، وألقى الرجلان بثقليهما فوق الفتاة ثم أمسكا بيديها . وشدت إحداهما إلى الأخرى بالقيود !

وأطلقت صرخة غضب ، وبرحت أحاول الدفاع عنها ولكن الضابط أوقفني قائلا :

— هذه الفتاة يا سيدتي ليست إلا رجلا يسمى نفسه « جان نيكولا ليكابيه » ... حكم عليه بالإعدام لإقدامه على جريمة قتل سبقتها جريمة هتك عرض ، ثم استبدلت العقوبة بالسجن مدى الحياة . لقد فر منذ أربعة أشهر ، ومنذ ذلك الحين ونحن نجد في البحث عنه .

أصابني الفزع ، وعقلت الدهشة لساني ، ولم أستطع أن أصدق ... واستمر الضابط في حديثه ضاحكا :

— أستطيع أن أقدم لك دليلا واحداً ، هو أن هناك وشماً على ساعده الأيمن .

وتحققت من صدق هذا القول عند ما كشف عن ساعده ، ولكن ضابط البوليس أردف في لهجة نابية :

— ليس من شك في أنك غير محتاجة إلى الإقناع عن طريق الأدلة الأخرى ؟

قالها ثم انصرف ممسوحاً ... بخادمتي !

صدقيني إن أقصى شعور تملكني هو شعور الغضب من أن يُغرر بي على هذا الوجه ، وأن أُخدع ، وأن أُعرض للسخرية .. وصدقيني إنه لم يكن شعوراً بالخزي أن يلمسني ذلك الرجل ؛ وأن يمسكني بيديه ، وأنا أبدو أمامه عارية وكاسية ، ولكنه كان شعوراً آخر ... شعوراً عميقاً بالغصة : غصة امرأة ! ترى هل فهمت ما أنا أقصد ؟

— كلا ، لم أفهم تماماً ماذا تقصدين !

— فكري هنيهة ... لقد أدين ذلك الرجل لأنه أقدم على هتك عرض ... وهذا هو الشيء .. الشيء الوحيد هناك ... الذي أشعرني بالغصة ! ترى هل فهمت الآن ؟

ولم تجب سيمون ، بل راحت ترسل البصر مستقيما إلى الأمام ، إلى حلة السائق حيث ثبتت عيناها في زرين يتألقان ، وعلى شفتيها تلك الابتسامة الغامضة التي تعرفها الثانيات ... في بعض المناسبات ! !

أنور العطار